كلية الآداب و العلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس

شعبة التاريخ : مسلك التاريخ والحضارة

الفصل السادس :تاريخ وحضارة

علي واحدي

المعتقدات الدينية والعادات الجنائزية لساكنة شمال إفريقيا خلال الفترة الما قبل تاريخية.

لا نزال إلى أيامنا هذه نرى بديار المغارب ما أشارت له بعض النصوص القديمة، من وجود عادات التي ترمي إلى تملك الأموال، وطرد الشرور أو تلافيها، والإساءة إلى الأعداء. ومع أننا لا نستطيع الإتيان بالبرهان، فلاشك أن بعض هذه العادات يصعد إلى عهد عتيق بالغ في القدم. ونذكر على سبيل المثال طقوس جلب المطر التي تشير لها إحدى الفقرات في ديون كسيوس، وعادة الغوص في الماء لنفس الغرض أثناء الميل الصيفي. وقد ندد القديس أوغسطين بهذا العمل الذي بقي معمولا به في عدة أماكن من أرض المغارب. وكذلك العادة التي ذكرها أرنوب Arnobe على ما يحتمل، وهي ربط قطع من النسيج على الأشجار فتثبت فيها الشرور التي يراد التخلص منها. وعادة الصراع التي تحدث عليها كل من هيردوت والقديس أوغسطين. وهي من الطقوس التي يظهر أن الغرض منها كان يرمي لأن تطرد بعنف الشرور الساكنة في أجسام المتصارعين.

إن الإحيائية Animisme، هي، حسب المدلول المتداول لهذا اللفظ، الاعتقاد في أرواح لها ذكاء وقدرة، تعيش بصفة دائمة أو مؤقتة في ظروف مادية، وتحدث الظواهر التي يشاهدها الإنسان، وحيث إنها مخلوقات قد تحسن أو تسيء فيحسن بالإنسان أن يؤثر عليها بطريقة القهر أو الاستعطاف. وهناك وثائق من العهد الروماني سندرسها فيما بعد، تعرفنا بأنه قد وجدت بأمكنة مختلفة عبادات الجبال، والمياه، والأشجار، وكلها تشهد بوضوح بوجود خرافات العبادات الإحيائية. غير أن الشعوب التي دخلت في العهود التاريخية إلى أرض المغارب قد كانت لها مساهمة في نشر هذه العبادات. ونحن نعلم أهمية الأماكن العالية في الديانة الفينيقية، وكذلك فإن أرواح العيون والأنهار والجبال التي تذكرها بعض النقوش اللاتانية، هي – في الظاهر على الأقل – معبودات رومانية. ولا نستطيع كذلك أن نقول هل عبادة الأحجار، التي يقال إن أرواحا قوية تسكنها، قد كانت لها في شمال إفريقيا أصول عريقة في

القدم ؟ إذ ليس هناك ما يؤكد أنها كانت موجودة قبل قدوم الفينيقيين. وتنطبق هذه الملاحظة عموما على الفيتيشية Fitichisme القائلة بوجود قدرة حامية في قوة خفية – أي طاقة لطيفة تنبعث من الكائنات – أو توجد في أرواح كامنة في أشياء طبيعية أو مصنوعة يقتنيها الإنسان. ومن المحتمل مع ذلك أن أهل عصور ما قبل التاريخ كانوا ينظرون إلى الأشياء التي نضدوا منها قلاداتهم على أنها فيتيش لا مجرد حلي.

ونستطيع إلى حد ما ان نكون أكثر تأكيد بالنسبة لعبادة الحيوانات Zoolâtrie. ففي بداية القرن الميلادي الخامس، فقد عزا القديس أوغسطين للمصريين وحدهم عبادة الحيوان، مع أن وطنه كان به من الأهالي من لم تكن هذه العبادة أجنبية عنهم. فالشاعر كوربوس Coripus كتب في القرن الميلادي السادس أبياتا من الشعر تشهد أن أهل قبيلة لكواتا (لواتة ؟)، التي هي إحدى قبائل طرابلس، كانوا يعبدون كرزيل Gurzil المتولد من الرب آمون وإحدى الأبقار. وكان كرزيل يتقمص ثورا يرسل على الأعداء عند بداية المعركة. وبعد ذلك بكثير، أي في القرن الحادي عشر الميلادي، ذكر البكري قبيلة تسكن أرضا جبلية بالجنوب المغربي كانت تعبد الكبش. ويلاحظ حتى اليوم عند البربر آثار أخلاق يمكن تأويلها بأنها علامات غامضة لعبادة بدائية للحيوانات، أو هي على الأقل علامات عن عهد قديم بين الحيوان والناس، كالمراعاة الخاصة لبعض الحيوانات، وصيانة حياتها والامتناع عن أكل لحومها.

وتوجد، فيما عدا أبيات كوربوس الآنفة الذكر، عدة وثائق قديمة تشهد بوجود الحيوانات المقدسة بإفريقيا. وسنطرح جانبا الوثائق المتعلقة – على ما يحتمل – بالعبادات الطارئة في العهد التاريخي. لكن يجب أن نذكر هنا نصا قيما ليدودور الصقلي. فقد روى هذا الوؤرخ قصة حملة أگـــتوكليس Agathocle التي جرت في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وتحدث أثناءها عن أرض تسكنها قردة عديدة، وتوجد بها ثلاث مدن تسمى، نظرا لهذه الحيوانات، باسم ترجم إلى الإغريقية فكان هو: بيتيكوساي Pithékoussai (ونحن نعلم أن بيتكوس Pithékos معناها القرد في الإغريقية). وكانت القردة بها تعيش داخل بيوت الناس الذين كانوا يعتبرونها آلهة، كما أنها كانت تتمتع حسب إرادتها بطعام الناس، وكان الآباء يفضلون أن يطلقوا على أبنائهم أسماء مشتقة من أسماء القرود، وكان أعظم الكفر في هذه البلاد هو قتل القرد، ويعاقب عليه بالموت.

أما الرسوم الصخرية التي هي من عهد ما قبل التاريخ بأرض المغارب، فإنها تساعدنا على أن نصعد بعيدا في الماضي. فمن بين الحيوانات المنقوشة بها، توجد حيوانات لاشك أن أهل ذلك الزمان كانوا يعطونها صبغة القداسة. وهذا أمر لا يمكن أن يشك فيه بالنسبة للكباش، التي على رؤوسها أقراص، والتي سنتحدث عليها فيما بعد.

أما الطوطمية Totémisme فهي عقيدة كتب عنها الكثير في هذه السنين الأخيرة كتابات لا تخلو من مبالغة. وعلى العموم، الطوطم حيوان تدعي إحدى العشائر، أي مجموعة من الناس المرتبطين فيما بينهم برباط الدم، أنها تمت له بالقرابة. فتتخذ العشيرة الطوطم، ويعيش أفرادها بقدر ما استطاعوا في وئام مع حيوانات نوعهم المختار، ويمتنعون عادة من قتلها وأكلها، ويعتبرون أن ليس هناك ما يخشونه من هذه الحيوانات. وإذا حدث أن أضر أحدها بأحد أفراد القبيلة فذلك علامة على أن هناك أسبابا وجيهة لإنكار قرابته منه. وقد لوحظ اليوم وجود هذا الاعتقاد بالأمريكتين، والهند وفي أقيانوسيةن وبالقارة الإفريقية، ويستدل بحجج، تستحق الاعتبار على الأقل، لتأكيد أن هذا الاعتقاد وجد في العهود البدائية عند شعوب مختلفة ببلدان البحر الأبيض المتوسط. وقد بقيت منه هنا وهناك آثار استمرت حتى العهد التاريخي. وربما ساغ بالنسبة لشمال إفريقيا، أن نحتج بالنص الذي أوردناه من قبل لديودور الصقلي. ذلك أن عدة جزئيات به تذكر بالطوطمية كالمدن الموصوفة بأنها مدن قرود، وحياة الناس مع القرود، واحترام حياة هذه الحيوانات. وكذلك فإننا ربما نغرى بالقول بوجود هذه الخرافة الطوطمية فيما روي عن البسيليين Psylles الذين كانوا بمنطقة السدرتين. ويذكر إيليان أن الحيات القرناء Cerastes، عدوة بقية الليبيين، كان لها عهد مع البسيليين الذين كانوا لا يتأثرون بلذغاتها. وحسب قول بعض الليبيين، فإن البسيلي، إذا شك أن يكون الإبن الذي وضعته زوجته هو ابنه، فإنه كان يملأ صندوقا بهذه الحيات ويرمي فيه بالطفل المولود. وبعدما يلامس الطفل الحيات التي تكون مهتاجة في اول الأمر ثم تهدأ، فإن الأب يستنتج من ذلك أن هذا الطفل منه حقيقة.

وهناك نوع من عبادة الحيوان، بقيت علاقته بالطوطمية بالغة الغموض. وهو عبارة عن عبادة حيوان ينتمي لنوع محدد ومختار بناء على بعض العلامات، ويظن أحد المعبودات يحل فيه. وقد كانت مصر القديمة مليئة بهذه الآلهة الحيوانية التي وجدت أيضا بأرض المغارب. ولابد أن منها ثور اللـــگـــواتان La guantan الذي ذكره كوربوس وكبش الجبليين المغاربة الذين أشار إليهم البكري. ولابد أن يقال مثل هذا عن الكباش المنقوشة على صخور الجنوب الوهراني، بعلامات خاصة تشهد

أنها كانت تتميز بوضوح عن بقية أبناء جنسها من الكباش. وسنرى قريبا أن هذه الحيوانات المقدسة كانت لابد تعتبر تشخيصا لإله كبير.

على أن رسوما صخرية أخرى، ترينا الشكل الإنساني وقد اختلط بالشكل الحيواني. ففي الريشة بالجنوب الوهراني نرى رجلا قاعدا، وله أرنب بري، ويحمل في يده اليمنى ما يشبه أن يكون قضيبا معقوفا. وفي تليس زرهين بالصحراء، في ناحية الغات، شاهد بارث Barth رسوما لشخصين واقفين، متواجهين، أحدهما له رأس ثور أو ظبي، وله ذيل وبيده قوس وسهام. أما الثاني فرأسه، حسب رأي بارث، يشبه مشابهة مبهمة رأس طائر أبو منجل Jbis، ويحمل في يده قوسا أو ترسا بيضوية الشكل. والمخلوقات المخيفة التي كانت الخرافة تجعل لها وجودا حقيقيا، قد عبدتها في العهود العتيقة شعوب مختلفة، وعلى الخصوص منها الشعب البابلي. كنا أن اختلاط الخلقة الإنسانية بالحيوانية قد كان بمصر نوعا من التوفيق بين عبادة الحيوان والعبادة المشبهة بالإنسان (Anthropomorphisme) لكن يظهر أنه لابد هنا من قبول تأويل آخر، وهو أن الأشخاص المرسومين يمكن أن يكونوا مجرد رجال عليهم أقنعة في الحفلات. ومثل هذا التنكر معمول به كثيرا عند الشعوب ذات الحضارات البدائية. فبمثل هذه العلامة المادية يندمج المرء في الحيوانات الإلهية أو يندمج في الحيوانات التي لها قرابة بالعشيرة إذا كان الأمر يتعلق بنوع من الطوطم.

أما الأشخاص الذين تقدمهم لنا الرسوم في تقاطيع إنسانية تامة وفي أوضاع مختلفة، فليس هناك ما يسوغ لنا اعتبارهم معبودات. يقول هيردوت إن جميع الليبيين يقدمون القرابين للشمس والقمر، وأنهم للشمس والقمر وحدهما يقدمون القرابين(124). وعلينا ان لا ندعم هذا القول بالتقدمات اللاتانية لصول Sol ولونا Luna التي عثر عليها في إفريقيا، ولا برسوم النجمين اللذين يظهران على الأنصاب التي يعثر عليها عموما بالأمكنة التي توطدت فيها الحضارتان البونيقية والرومانية، لأن المحتمل أو المتأكد هو أن هذه الآثار تتعلق بعقتئد ذات أصل أجنبي. ولعل من المستحسن أن نعير الأهمية لفصل من ابن خلدون الذي يتحدث عن البربر الوثنيين عباد الشمس والقمر. فمن الممكن أن نفرض أن الأمر يتعلق بعبادات أهلية. ولنذكر بهذه المناسبة أيضا أحد النصوص من مكروب Macrobe الذي يقول: إن الليبيين يمثلون الإله آمون بقرون الكبش، وينظرون إليه على أنه الشمس الغاربة وصحيح أن هذا الكاتب كان يجد عبادة الشمس بكل مكان، ولذلك فإن قوله لا تكاد تكون له قيمة، لو لم تؤكده شهادات أخرى.

كان المعبودان الأكبران للقرطاجيين هما بعل حمون Baal Hammon وتانيت بني بعل Tanit Pené Baal اللذان يظهر أن أولهما كان إله الشمس، بينما كانت الثانية إلهة قمرية. وقد اختلط لدى الأهالي بعل حمون بآمون الذي سنتحدث عليه، ولكن ليس هناك ما يؤكد أن بعل حمون هذا، الذي ورد من فينيقيا، لم يصبح إلها شمسيا إلا بعد طروئه على شمال إفريقيا. كما أنه يستحيل تأكيد كون تانيت بني بعل قد تحولت في هذه المنطقة إلى إلهة قمرية بعد تقمصها هي إحدى الربات الأهلية، بل ربما يراودنا السؤال عن عبادة الشمس والقمر المنتشرة بين الليبيين في عهد هيردوت حوالي وسط القرن الخامس ق م، وهل لم تأتهم من الفينيقيين؟ أما فيما يتعلق بالقمر، فإن الوثائق تعوزنا لتبديد شكوكنا. وليس الأمر كذلك فيما يخص الشمس، إذ هناك أسباب قوية تجعلنا نقبل أن عبادة هذا الكوكب بأرض المغارب قد سبقت توطيد الاستعمار الفينيقي.

وتظهر في الرسوم الصخرية بالجنوب الوهراني، كباش على رؤوسها أقراص تمسكها أربطة تمر تحت الأحناك. وهي رسوم معروفة بالريشة في ملحقة أفلو، وفي بوعالم بناحية البياض، حيث يوجد اثنان منها، كما أنها معروفة بفج زناكة قرب فيـــگـــيـــگ. ويشاهد بأحد رسوم بوعالم وبزناكة أن القرص تكتنفه أو تعلوه زائدتان تمثلان حيتين. ونجد معنى هذه الخاصية في عدد كبير من الآثار المصرية، حيث نشاهد القرص الشمسي وعلى يمينه ويساره تنتصب الحية الناشر. فيظهر لنا إذن أن رسومنا تؤكد أن عبادة الشمس كانت بالجنوب الغربي الوهراني تختلط بخرافات العبادات الحيوانية، وذلك منذ عهد قديم جدا، سابق لاشك على الألف الأولى من السنين قبل الميلاد.

وليس في الأمر مجازفة كبيرة إذا أطلقنا اسم آمون على الكبش المقدس الذي تعرفنا به هذه الرسوم، لأنها تتطابق مع نص مكروب Macrobe الذي ذكرناه آنفا، والذي يعطي للرب الليبي آمون، ذي قرون الكبش، خاصية شمسية. فالرب الليبي رسم أولا في شكل حيواني تام، ثم رسم بعد ذلك في شكل إنسان، احتفظ له من شكله الأولي إما بالرأس وإما بالقرون فحسب. وأهم من ذلك أن رسومنا تتفق مع الكثير من الصور المصرية لآمون، الذي يطلق عليه في الغالب اسم آمون رع، أي آمون الشمس. فالكبش الكيباوي يعلو رأسه القرص الشمسي الذي تحيط به الحيتان.

إن قوة الفراعنة الذين كانت طيبة عاصمتهم أثناء الألف الثانية ق م، قد رفعت شأن المعبود الأكبر لهذه المدينة، ونشرت عبادته حتى خارج مصر. فآمون الطيباوي لاشك هو الذي كانت له معابد ببلاد النوبة. وبغرب وادي النيل كان يعبد في واحة سيوة التي دعاها الإغريق باسم أرض آمون،

وعرفه المعمرون الإغريق بسرنيكا واتخذوه معبودا لهم باسم زيوس آمون، ورسوم الجنوب الوهراني تشهد أن عبادة آمون توطدت في أرض المغارب من وقت مبكر. واستمرت هذه العبادة بعد قدوم الفينيقيين، وبعد الفتح الروماني، ولو أنها تحملت بهذه المنطقة تغيرات عميقة إلى حد ما. فهي إذن قد انتشرت في جميع شمال القارة الإفريقية.

ليس لدينا أي مسوغ للاعتقاد بأن الليبيين، قبل أن يتأثروا بالمصريين، كانوا قد عبدوا ربا كبشا، وأنهم قد يكونون أطلقوا عليه اسم آمون، الذي ربما كان أجنبيا في طيبة التي دخلها من الغرب منذ عهد بعيد. ومن جهة أخرى فإن المتأكد هو أن امتزاج الطبيعة الحيوانية بالطبيعة الشمسية في هذا الإله قد تم بوادي النيل. والحقيقة هي أن آمون، كبش طيبة، قد استعار اسمه الثاني من رع الإله الشمس لمدينة آن An، أي هيليوبليس. فبالتحاده معه ذاتيا أصبح معبودا شمسيا على غرار الآلهة الأخرى التي اتحدت ذاتيا كذلك مع رع. وبعد حصول هذا الاتحاد نال القرص الذي تحيط به الحيتان.

وهكذا فإن رسوم الجنوب الوهراني تمثل آمون رع الطيباوي. ولابد أنه وصل إلى هذا المكان بعد أن مر من قبيلة إلى أخرى، إذ ليس هناك ما يشير إلى أن سكان أرض المغارب كانت لهم علاقات مباشرة مع مصر. وربما إن وصوله حدث بين القرن السادس عشر والقرن الثاني عشر ق م، أي في عهد القوة الكبرى لملوك طيبة، وكذلك في العهد الذي كان فيه الليبيون الساكنون شرقي سدرة الكبرى، قد جذبتهم مصر فحاولوا عدة مرات أن يقتحموها غازين، وسكنها العديد منهم كمرتزقة في جيشها.

فرسومنا تؤكد أن أهالي شمال إفريقيا منذ هذه العهود البعيدة لم يكونوا يعبدون المعبودات المحلية وآلهة العشائر فحسب، بل إن عبادة إله كوني كبير هو الشمس، كانت منتشرة بالجنوب الوهراني من أفلو إلى فيـــگـــگ، وأيضا في البلا الواقعة بين هذه المنطقة ومصر، لاشك. وليس مستحيلا أن يكون إله مصري آخر قد عبد في بوعالم. ذلك أن بهذا المكان رسما يمثل ثورا يحمل بين قرنيه شيئين مستطيلين. فطرح سؤال – هو مجرد افتراض – هل تكون هذه الصورة هي صورة ثور إرمنت Erment الذي يحمل رأسه ريشتين ؟

وقد اتخذت الشعوب المجاورة لوادي النيل معبودات مصرية أخرى. فالمحاربون الليبيون كانوا في القرن الرابع عشر ق م يحملون على أذرعتهم وسيقانهم وشوما تمثل الآلهة نبت Nit ربة سايس. فهل دخلت هذه الربة لأرض المغارب بواسطتهم كما دخل آمون؟ لا نستطيع أن نقول سوى أن معبودة

باسم أثينا – كما سماها هيردوت – كانت في القرن الخامس ق م تعبد بجنوب البلاد التونسية، وأنها بطابعها الحربي تشبه نيت، التي تشخصت في أيضا في أثينا.

ويشير هيردوت وبعض الكتاب المتأخرين بعده إلى معبودات أخرى عند الليبيين، فيصفونها بأنها ليبية ويطلقون عليها أسماء إغريقية. وسندرس فيما بعد هذه النصوص التي ترجع إلى العهد التاريخي. ولكن، حيث أنه قد وجد بالجهات الشرقية ليبيون يعرفهم الإغريق معرفة جيدة، فلربما أن اللآلهة التي يذكرها هؤلاء الكتاب لم تكن جميعا قد عبدت بالمنطقة التي نطلق عليها اسم أرض المغارب. ومن ناحية أخرى، فلعل صفة "ليبية" لا تدل دائما على أصل أهلي، بل كانت تسري أحيانا على آلهة أدخلها الفينيقيون إلى ليبيا. هذا، وإذا كانت معرفة معبودات ما قبل التاريخ تغيب عنا بصفة تكاد تكون تامة، فإننا كذلك لا ندري شيئا عن الطقوس.

إن الرسوم الصخرية التي بالهرية في شرق قسنطينة، وبخنقة الحجر بناحية قالمة، وفي واد يتل الجنوب الغربي لبسكرة، وكذلك التي بالجنوب الوهراني، كلها ترينا رجالا ونساء واقفين، أو تنحني ركبهم، وأيديهم كالمرفوعة إلى أعلى، وهي أحيانا مفتوحة وفارغة، وأحيانا تمسك أشياء غالبا ما يصعب تحديدها: فلربما هي مقدة مركبة على نصابها، كما بالقصر الأحمر، وهي في واد يتل أشياء بيضوية الشكل ومسطرة بخطوط. فهيئة هؤلاء الأشخاص تذكرنا بالحركة المتعارفة للصلاة، ويمكن أن نفترض أن البعض منهم يحملون التقدمات. وتوجد رسوم أخرى نراها بمغار وبالريشة بالجنوب الوهراني وكذلك بواد يتل ترينا من أمام أناسا جالسين، وأرجلهم منفرجة، وأيديهم مرفوعة. فهل يتعلق الأمر هنا أيضا بحالة تعبد ؟ ولقد سبق أن تحدثنا على الأفراد الذين يظهر أنهم تنقبوا بأقنعة حيوانية، وأنهم بهذا التنكر ربما يشاركون في إحدى الحفلات. ولا توجد أي صورة لتقديم القرابين. لكن بالقرب من تيارت بولاية وهران، توجد صخرة كبيرة، لها شكل مائدة غليظة الصنع، قد انفصلت عن أحد الجبال، وبالوجه الأعلى لهذه الصخرة ثلاث أحواض متدرجة، على جوانبها ثقب صغيرة. فرأى البعض فيها مكانا مقدسا من عهد عتيق بعيد، كانت القرابين تقدم فيه. ولكن يظهر لنا أن هذا افتراض فيه كثير من المجازفة.

لعل الشعائر الدينية كانت تقام أمام هذه الرسوم التي تمثل كائنات معبودة، وربما حتى مشاهد من العبادة. فجل هذه الرسوم قد خط على صخور في العراء. لكن الرسوم في واد يتل تغطي جدران بعض النواويس Hypogées الاصطناعية المكونة من ممر موصل ومن رواق واحد أو عدة أروقة

منتظمة تقاطع الممر. وتوجد بوادي الشيل بطرابلس رسوم تغطي جدران مغارة طبيعية. فالمغارات التي استخدمت للسكنى أثناء قرون طويلة، بقيت هنا وهناك تستعمل كأماكن للعبادة. ولربما كان القصد الديني هو السبب في رسوم صورة إنسانية على مدخل مغارة بوزباوين، قرب عين ميلة بولاية قسنطينة. وفي العهد التاريخي، حتى في زمان القديس أوغسطين، كانت الكهوف المقدسة لا تزال موجودة بأرض المغارب. وإذا استطعنا أن نقبل أن البعض منها كانت تقام فيه الحفلات الدينية التي هي من أصل أجنبي، فلاشك أن بعضها الآخر كان يستعمل لحفلات ذات أصل أهلي حقيقة.

وارتبط بهذه الأماكن المقدسة العادات الجنائزية التي، إن لم تشهد بوجود عبادة الأموات التي تشهد على باهتمام ساكنة شمال إفريقيا خلال الفترة القديمة بالموتى. لقد جمعت عظام بشرية تقريبا من جميع المحطات التي كانت مسكونة في العهود الأخيرة لحضارة الحجري القديم وحضارة الحجري الجديد. كما عثر عليها بمحطات العراء. وكثيرا ما تكون هذه العظام مكسورة وفي فوضى كبيرة. ولقد سبق أن قلنا إن هذا ليس حجة على أكل الإنسان للإنسان. فلربما إن الهياكل العظمية تناثرت أجزاؤها عندما كان سكان الكهوف ينظفون كهوفهم المكتضة. وزيادة على ذلك، فغن هذه الفوضى لا توجد بكل مكان. وبمشاهدة بعض الأوضاع هنا وهناك يمكن التأكيد بأننا أمام مدافن حقيقية.

ففي بعض المآوي القريبة من لالة مغنية بولاية وهران عثر على بعض الهياكل العظيمة راقدة وسط الرماد، وكانت رؤوسها متجهة نحو الغرب، والأبدان مائلة على الجانب الأيمن، وأرجل الكثير منها كانت مثنية، كما أن حجرة عريضة كانت تصون صدر كل واحد من الاموات، وأحيانا كانت توضع حجرة أخرى تحت الظهر او تحت الكلى. وكل هذه الأحجار التي يظهر عليها أثر النار، كانت قبل ذلك من أحجار المواقد. أما التراب الذي يغطي الأبدان، فمخلوط بالرماد وبقايا الفحم وبعدد كبير من الحلزون. ويظهر أنه قد ضغط بشدة. وتؤرخ هذه المدافن بنهاية العهد الحجري القديم، كما تدل على ذلك الأشياء التي عثر عليها داخل المغارات وأمامها.

ويوجد مأوى بالرديف، بالجنوب الغربي للبلاد التونسية، يضم عظاما بشرية، من بينها ثمانية هياكل للأطفال، جمعت في أوضاع مختلفة، ومن هذه الثمانية هيكلان أخفيا تحت أحجار عريضة. وترجع الأشياء التي كانت تحيط بهذه الهياكل إلى إحدى الصناعات الجيتولية الحديثة نسبيا.

وفي مغارتين بأثاث من الحجري الجديد، في كوارتيل Cuartel قرب وهران، ووادي الملاح بالجنوب الغربي لهذه المدينة عثر بعد التنقيب على بقايا من هياكل عظيمة بين جدران حجرية خشنة.

وعثر بمغارة علي باشا في بجاية على جمجمة موضوعة بما يشبه أن يكون كوة طبيعية، ومغطاة بحجرة عريضة، وبالقرب منها عظام بشرية مبعثرة، ولعلها لنفس الشخص، وأزيحت عن مكانها أثناء تفريغ جزئي للمأوى، أو بسبب حيوان مفترس.

إذن فيتأكد أن الموتى بأرض المغارب كانوا يدفنون في مغارات طبيعية، وحسب عادة نلاحظ وجودها في كثير من الجهات الأخرى في العهود الحجرية القديمة والجديدة. وقد استمرت هذه العادة محتفظا بها قرب القارة الإفريقية عند شعب الكوانش Guanches بجزر كناريا حتى القرن الميلادي الخامس عشر.

ويجب أن لا نشمئز عند التفكير في أن سكان الكهوف قد سكنوا المآوي التي ربما استعملت في نفس الحين أماكن للدفن. ومن الممكن مع ذلك، أن تكون بعض الكهوف قد استعملت بالتعاقب لإقامة الأحياء والموتى. ففي لالة مغنية كان المأوى الذي تحدثنا عليه من قبل قد فصل منه قسم بأحجار ضخمة تحول دون المرور. ونجهل هل كان سكان المغارات وأهل محطات العراء قد دفنوا موتاهم أيضا خارج مساكنهم، في حفر حفروها بالأرض.

لقد كانت العظام البشرية في كل مكان مختلطة مع الرماد. ولكن، لا يمكن أن نستنتج من ذلك أن الأجسام قد وضعت عن قصد في المواقد، ذلك أن هذا الرماد كان مع البقايا المتنوعة، يكون في المغارات والربوع طبقة سميكة إلى حد ما، وبها كان الموتى مدفونين. ولا نستطيع كذلك ان نقول إن الأشياء التي عثر عليها بمحاذاة العظام، كالأدوات التي هي من حجر أو عظم، والقواقع التي استعملت حليا، وبقايا الطعام، كل هذا الافتراض ممكن قبوله جدا، لأن وضع الحلى المتكونة من القواقع غالبا، وأحيانا أيضا وضع الأدوات أو الأسلحة من عظم وحجر، قد لوحظ وجوده بتأكيد في المدافن الأوربية التي ترجع لعهد بعيد من عهود حضارة الحجري القديم، الأمر الذي يدل على الاعتقاد بحياة أخرى مادية.

وفي مغارتين سكنتا في العهد الحجري الجديد، إحداهما تجاور وهران والأخرى بقرب تبسة، عثر على جمجمتين عليهما أثر التلوين بالأحمر، وفي أوربا عثر على مثل ذلك في مدافن العهد الحجرين، وكذلك في أرض المغارب في مدافن تؤرخ بالعهود التاريخية، وسندرسها فيما بعد. فصبغ الأبدان، الذي نعتقد أن الصبغة وضعت على العظام نفسها، بعد ما انفصل عنها اللحم بترك الجثة معرضة للهواء الطلق أو بعد دفن مؤقت. فقد كان بالإمكان وضع المادة الملونة على الجثة، وبعد

ذهاب اللحم تصبغ المادة العظام التي تمسها. وبالنسبة لعهد ما قبل التاريخ، ليس لدينا ما يؤكد وجود طقوس فصل العظام عن لحومها بشمال إفريقيا. ويظهر أن إحراق الموتى قد لوحظ وجوده في تيفريت بالقرب من سعيدة بولاية وهران في مغارة أثاثها من العهد الحجري الجديد. ولكن هذا الاكتشاف لم يصدر في شأنه تقرير مفصل. ولربما كان الأمر يتعلق بعظام احترقت عن غير قصد، بسببعض المواقد التي ربما أقيمت على المدافن.

لقد رأينا من قبل في لالة مغنية وجود عدة جثث لها أرجل مثنية. وتوجد هذه الوضعية، خارج أرض المغارب، في عدد كبير من المدافن البدائية. وحتى في أرض المغارب فإنها توجد بكثرة، ومن عهد أكثر حداثة. وسنذكر مختلف الافتراضات التي عرضت لتفسيرها، وذلك حين نتناول بالوصف المدافن الأهلية أثناء العهد التاريخي.

وسنرجئ لما بعد دراسة المدافن التي من حجر بدون طين، المعروفة بأسماء التلات (الرجام Tumulus) والبازينات Bazinas والدلمينات Dolmens والشوشات Chouchets، التي تنتشر الآلاف منها بشمال إفريقيا، والتي تتميز بوضوح عن المدافن الفينيقية والرومانية. ونحن نصدق بسهولة أن أمثلة هذه المدافن ترجع لعهد عتيق بعيد، مثلما تصعد أيضا الطقوس الجنازية التي نلقاها بها، وذلك أن البعض من هذه المدافن تلوح عليه مشابهات، لايمكن أن تكون من قبيل المصادفة، مع الآثار التي بنيت في الألف الثالثة والألف الثانية قبل الميلاد في غرب أوربا والبلدان التي على ساحل البحرالأبيض المتوسط الغربي. لكن، حسب معلوماتنا الحالية، فغن المدافن الإفريقية التي من حجر دون طين، والتي يمكن التأريخ لها، ترجع جميعا إلى القرون التي سبقت العهد المسيحي مباشرة أو التي تلته مباشرة كذلك.